اصل الانتخاب الطبيعي

ابا غير مرة ان مذهب نشوء الانواع بعضها من بعض بواسطة الانتخاب الطبيعي قال بهِ دارون ووللس في وقت واحد لا لانهما استنتجاهُ في وقت واحد بل لانهما اشهراهُ معاً . وقد كتب وللس يثبت ان الفضل في هذا الاكتشاف لدارون وان ليس لهُ هو الاَّ جزء صغير جدًّا منهُ . وهذا شأن الكرام الذين لا يحسبون الناس اشياءهم ولا يتجملون ما ليس لهم . وكلام وللس في هذا الموضوع لما احتفلت جمعية لينيوس الطبيعية بهِ وبدارون حريٌّ بان يكتب بماء الذهب

وقد اشرنا اليهِ في شهر اغسطس الماضي وذكرنا خلاصتهُ ورأينا الآن ان نترجمهُ كلهُ هنا قال . اني شاكر مجلس ادارة هذه الجمعية على الشرف العظيم الذي انالتني اياهُ بقرنها اسمي مع اسم تشارلس دارون في هذا الاحتفال وعلى الشرف الاعظم الذي نالهُ بتخليد صورتي مع صورة سابقي المجيد في الشان الذي منحتني اياهُ

واني استميحكم بذكر بعض كلمات من حيث العلاقة التي كانت بين دارون وبيني قبل شهر يوليو من سنة ١٨٥٨ وبعض ما يتعلق بي وبهِ مما مكَّن العلاقة بيننا ولا يخلو ذكرهُ من لذة لاني لم اذكرهُ قبلاً

من حين مات دارون سنة ١٨٨٢ وانا اجد الكتاب يعزون اليَّ شيئًا لا استحقهُ لانهم لا يعلمون ماهو نصيبي الحقيقي من المذهب الداروني فقد قيل في الجرائد والمجلات اننا اكتشفنا الانتخاب الطبيعي في وقت واحد وكلٌّ منا لا يعلم بما فعلهُ الآخر . وبالغ بعضهم فقال اني انا السابق الى هذا الاكتشاف واني تنازلت عنهُ لدارون

ودفعاً لهذا الوهم ارى انه يليق بي ان اقص واقعة الحال كما وقعت تماماً

ان الامر الوحيد الذي يربطني بدارون ولم ينكرهُ احد عليَّ هو ان فكرة الانتخاب الطبيعي او بقاء الاصلح وما ينتج عنها خطرت لي كما خطرت لدارون وكل منا لا يعلم ما خطر للآخر واننا اعلنَّا ذلك معاً في وقت واحد امام هذه الجمعية منذ خمسين سنة

ولكن الامر الذي نبهَ الكتَّاب هو ان هذه الفكرة خطرت ببال دارون سنة ١٨٣٨ فلما خطرت ببالي بعشرين سنة . وان دارون ظل كل تلك السنين يجمع الادلة التي تؤيدها مما كتب في علم الحيوان والنبات والزراعة ومن التجارب التي جربها هو نفسهُ والامور التي

شاهدها كما يظهر مما اثبتهُ في كتابهِ «اصل الانواع» وفي كتابهِ الآخر الذي موضوعهُ الحيوانات والنباتات الاهلية فانهُ جمع مواد ذينك الكتابين وحققها ورتبها في تلك السنوات العشرين

وقد كتب دارون مجمل آرائهِ في سنة ١٨٤٤ وأطلع عليها صديقيهِ السر تشارلس ليل والسر جوزف هوكر قبلما خطر لي ان اهتم بدرس المواضيع الطبيعية . فلم يعلم عليهِ السر تشارلس ليل ان ينشر خلاصة آرائهِ باسرع ما يمكن لئلا يسبقهُ احد اليها اما هو فأبى مفضلاً الانتظار الى ان يتسنى لهُ تنسيق كل ماجمعهُ في هذا الموضوع . ثم تمَّ ما أنبأ بهِ ليل فجاءهُ كتاب مني وفيهِ مقالة في هذا الموضوع فانقضَّ عليهِ كصاعقة من السماء واضطرهُ حينئذٍ صديقاهُ ليل وهوكر الى نشر مقالة منهُ في هذا الموضوع مع مقالتي وقرئت المقالاتان معاً في هذه الجمعية

فما اعظم الفرق بينهُ وبيني . هو درس الدرس الطويل واعدَّ المعدات الكثيرة وعزم ان لا ينشر نتيجة عملهِ الاَّ بعد ان يجمع لهُ من الادلة ما لا يبقي محلاً للريب . اما انا فخطر ببالي هذا الخاطر في طرفة عين ولم افكر فيهِ اكثر من ساعات قليلة فكتبتهُ حسبما خطر لي حينئذٍ بكل تفاصيلهِ وتطبيقاتهِ ثم نسختهُ على ورق رقيق وارسلتهُ الى دارون وحدث كل ذلك في اسبوع واحد وقد كنت عجولاً كما هو دأبي دائماً . وطالب العلم انما يقصد تحقيق الامور التي يكتشفها لا الشهرة بها

هذا الذي جرى وانهُ ليرضيني ان يكون نسبة نصيبي من هذا الاكتشاف الى نصيب دارون منهُ كنسبة المدة التي قضيتها في تحقيقهِ الى المدة التي قضاها هو اي كنسبة اسبوع واحد الى عشرين سنة . ولو انقاد لحاجة اصدقائهِ ونشر اكتشافهُ بعد ما اكتشفهُ واشتغل في تحقيقهِ بعشر سنوات او خمس عشرة سنة او ثماني عشرة سنة لما كان لي فيهِ اقل نصيب ولاعترف لهُ الناس اجمع انهُ هو المكتشف الوحيد لناموس الانتخاب الطبيعي بكل نتائجهِ

حقاً اني موفق جداً باكتسابي شيئاً من فخر هذا الاكتشاف مهما كان قليلاً . ففي النصف الاول من القرن التاسع عشر وقبل ذلك ايضاً كان كثيرون من علماء الحيوان والنبات يبحثون في هذا الموضوع وارتأوا فيهِ آراء لا تكفي لحلهِ وبعضهم من اكبر العلماء عقلاً لكنهم لم يهتدوا الى محجة الصواب . ولو لم يتأخر دارون في نشر اكتشافهِ ليزيدهُ تمحيصاً لما ابقى لي اقل شأن فيهِ

وهذا يفتح لي مجالاً للنظر في هذه المسألة وهي لماذا عجز كثيرون من اكبر العلماء عن اكتشاف هذه الحقيقة وخُصَّ باكتشافها دارون وخصصت بها انا . يظهر لدى البحث اننا

انا وداروين كنا متفقين في امور كثيرة عقلاً وملابسات وهذه الامور قادتهُ وقادتني الى اكتشاف الانتخاب الطبيعي معاً

واول هذه الامور اننا انا وداروين كنا في صغرنا من المولعين بجمع الزيزان على انواعها. وليس بين الحيوانات ما يماثل هذه الحشرات في تعدُّد اشكالها وتنوع الوانها التي تمتاز بها انواعها ومناسبتها للاماكن التي تعيش فيها. وهذه الصفات تظهر في زيزان الاقاليم الحارة كما تظهر في زيزان الاقاليم المعتدلة وفي الجزائر الانكليزية وحدها على صغرها ٣٠٠٠ نوع منها

ثانياً ان داروين كان مثلي مغرماً بجمع الاشياء الطبيعية حبًّا بجمعها كما صرَّح بذلك لا للتدقيق في درس تراكيبها ظاهراً وباطناً او رغبة في رؤية ما بينها من الاختلاف كما اقول انا ولو لم يظهر هذا الاختلاف لاول نظرة. فهذا الامر السطحي الصبياني على ما يقال الذي يُنظر فيهِ الى الظواهر فقط ويستخفُّ بهِ لانهُ ليس من مطالب العلماء المدققين هذا الامر هو الذي قادنا الى النظر في مسألة تولد الانواع لان الطبيعة تميز بين انواعها بهذه الصفات الظاهرة التي هي اختلاف في الشكل او في نسبة الزوائد بعضها الى بعض فيمتاز بها النوع الواحد عن الآخر امتيازاً واضحاً يتبعهُ غالباً اختلاف في الحركات والعادات. وكثيراً ما يسهل الفرق بين نوعين متماثلين بما بينهما من الاختلاف في الوانهما ونقوشهما

ويرى المرء في البحث عن هذه المميزات واكتشاف ما لا ينتظر اكتشافهُ منها بين الحشرات المتشابهة لذةً تفوق الوصف. واذا كان ميالاً الى التفلسف مثلي ومثل داروين اضطرَّ الى البحث عن اسباب ما يراهُ اي عن كيفية حدوث هذه التغيرات الكثيرة والغاية منها

ثم اتفق لنا كلينا ان صحبنا في الارض لمشاهدة الطبيعة وجمع الامثلة الطبيعية وكانت سياحتنا كلينا في اغنى البلدان بالموجودات الطبيعية فاضطررنا ان نلتفت الى ما في الكائنات الحية من التغيرات وما يلابسها من تغير البقاع والاقاليم فزادت رغبتنا في البحث عن كيفية تولد انواع الحيوان والنبات وصارت هذه الرغبة شغلنا الشاغل فصرنا نفكر في هذا الموضوع نهاراً وليلاً

ولما استلَّ ذهننا بهذه الامور انتهينا كلانا الى كتاب مالثس في السكان وانطرق الطبيعية التي تمنع زيادتهم حتى تبقى اسباب المعيشة كافية لهم فأثَّر فينا كلينا تأثيراً واحداً اي قادنا الى الفكر بان هذا الجهاد يقضي ببقاء الاصلح او الانسب للبقاء

ومما يستحق الذكر ان داروين قرأ هذا الكتاب بعد رجوعهِ من سياحتهِ بسنتين وانا

قرأته قبلما سحت ولما كنت في سياحتي خطرت معانيه ببالي وأرشدتني الى هذا الامر اي بقاء الاصلح في الجهاد لاجل البقاء

وقد كنا كلانا في سياحتنا في سعة من الوقت للبحث والتفكير في ما يقع تحت نظرنا وعندي ان هذا ايضاً كان من اقوى الاسباب التي اوصلت بحثنا كلينا الى نتيجة واحدة

وهذه المشابهات بيننا في كثير من الامور العقلية والاحوال الخارجية التي قادتنا كلينا الى التفكير في موضوع واحد على صورة واحدة تفسر لنا كيف لم يوفق احد من معاصرينا الى هذا الحل البسيط لمسألة من اعظم المسائل فان روبرت تشمبرس وهربرت سبنسر وهكسلي كانوا كلهم من كبار العقول الواسعي الاطلاع الكثيري البحث والتنقيب ولكنهم لم يكونوا مثلنا ميالين بالفطرة الى جمع الحيوانات والنباتات والبحث عن مميزاتها. وكلهم والسر تشارلس ليل العالم الكبير معهم عكفوا على البحث في بعض المواضيع العلية تشغل كل عقولهم وحرمتهم من البحث في غيرها . وكذلك العلماء الذين سبقوا داروين الى البحث في هذه المواضيع لم تكن معارفهم فيها كافية ولا جمعوا من موادها الشيء الكثير كما جمع هو ولا كانت رغبتهم شديدة مثل رغبته ليروا ما رآه

والآن اعود الى ما يخصني في هذا البحث فاقول اني وصلت الى هذه النتيجة من عهد طويل وهي انه ما من احد يستحق ان يُمدَح او يُذَم لاجل خاطر خطر له ولكنه يُمدَح او يُذَم بحسب النتائج التي انتجها من ذلك الخاطر لان الخواطر والآراء ليست من الاعمال الخاضعة للارادة لانها تخطر لنا وقلما نعلم كيف تخطر ولا من اين تأتي ومتى خطرت لنا وتملكت منا تعذر علينا صرفها عنا او تغييرها بارادتنا ولذلك يحسن ان يكون الناس احراراً في آرائهم وخواطرهم لا يرغَّبون فيها بمدح ولا عنها بذم

ولكن الاعمال التي تنتج عن الآراء هي التي تستحق المدح او الذم لانها خاضعة لارادة صاحبها وبها يُعلم ما اذا كانت آراؤه صائبة فتتبع او طائشة فتهجر

ولذلك فاني اقبل اكليل المجد الذي كللتموني به الآن لا لانه خطر ببالي خاطر جعلني اشبه لناموس بقاء الاصلح بل لانكم نظرتم الى اعمالي التي عملتها لايضاح هذا الناموس وتحقيقه واظهار ما ينطبق عليه والتوسع في ذلك ولو خالفت فيه معلمي وصديقي تشارلس داروين